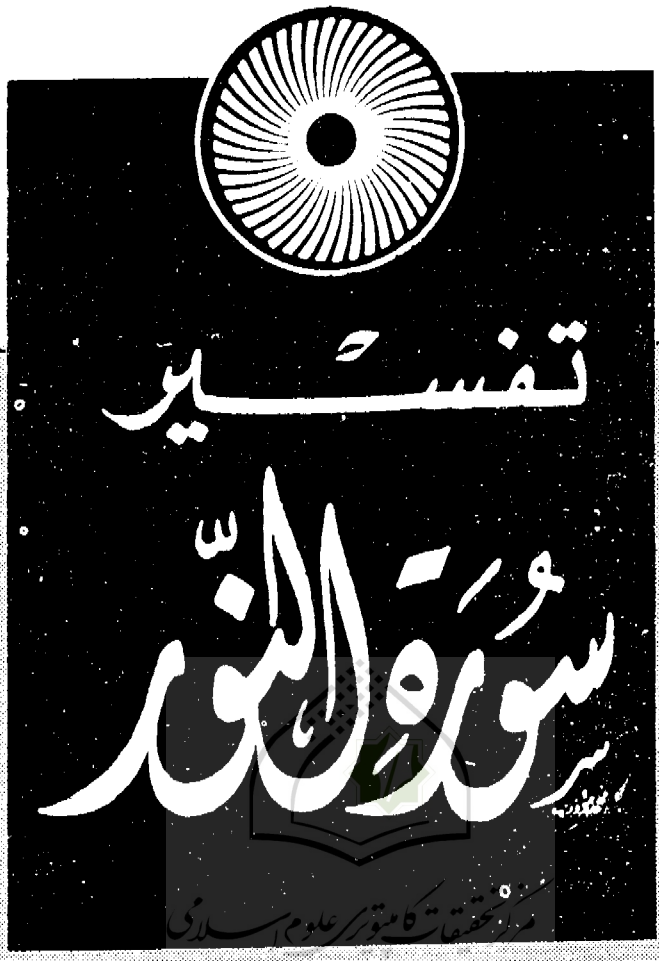

قال الله تعالى :

(والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب او كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) النور/٣٩ و ٤٠ .

تفصيل المعاني :

(الذين كفروا) : هم الذين لم يفتحوا قلوبهم لهداية الله التى تدعوهم الى الايمان به وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، بل كذبوا بها واستكبروا عن الاستجابة اليها .

(اعمالهم كسراب بقيعة) : السراب شبه ماء يرى نصف النهار عند شدة الحر فى البراري يظنه من رآه ماء . والقيعة جمع قاع مثل جار وجيرة ، وهى ما انبسط من الارض ولم يكن فيه نبات ، فالذى ينظر اليه فى منتصف النهار الشديد الحر يرى كأن فيه ماء يجري .

(يحسبه الظمآن ماء) الظمآن : هو الشديد العطش .

(حتى اذا جاءه لم يجده شيئا) : اى حتى اذا جاء الى موضع السراب رغبة فى اطفاء ظمئه ، وارتواء غلته ، لم يجد ما قدره وظنه ، بل وجد ارضا لا ماء فيها .

(ووجد الله عنده) : اى وجد الله المنتقم الجبار بالمرصاد له .

(فوفاه حسابه) : اى جازاه بعمله .. وهذا فى الظاهر خبر عن الظمآن ، والمراد به الخبر عن الكافر .

(والله سريع الحساب) : لأنه ــ جل شأنه ــ يعلم ما للمحاسب وما عليه، فلا يحتاج الى فكر ورؤية كالعاجزين .

(او كظلمات) : الظلمات جمع ظلمة .

(فى بحر لجي) اى بحر عميق ، ذلك ان اللجي منسوب الى اللجة ، واللجة معظم الماء ، والجمع لجج ويقال : التج البحر اذا تلاطمت امواجه ، والتج الأمر اذا عظم واختلط ، وفى قصة ملكة سبأ مع سليمان عليه السلام : **(فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها)** النمل/٤٤ .. اى لما رأت القصر الذى صنعه سليمان من البلور ، واقام ارضيته فوق الماء ، حسبته ماء كثيرا فكشفت عن ساقيها .

(يغشاه موج من فوقه موج) : اي يعلو ذلك البحر العميق امواج من الماء يتبع بعضها بعضا فى حركة قوية دائبة ، حتى كأن بعض الموج فوق البعض الاخر ، ومن ثم فالبحر اخوف ما يكون لعمقه البعيد ، وتوالي الموج وتقاربه .

(من فوقه سحاب) : اى من فوق هذا الموج المرتفع غيوم من شأنها أن تغطي النجوم التى يهتدى بها ، وأن تصحبها الرياح التى تسوقها والأمطـــار التى تنزل منها .

(ظلمات بعضها فوق بعض) : أى ظلمات متكاثفة . هى ظلمة البحـــر العميق وظلمة الموج الاول ، وظلمة الموج الذى فوقه ، وظلمة السحاب .

(اذا اخرج يده لم يكد يراها) : اى اذا اخرج من استحوذت عليه هـــذه الظلمات يده لم يرها لشدة الظلام ، فتكاثف الظلمات يحول بينه وبين الرؤية .

(ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) : اى من لم يجعل الله له نورا تصلح به أعماله فى دنياه ، ويمشي به يوم القيامة الى جنة الله ، فما له من نور عند أحد ، وحياته ظلام ، ومصيره ـــ يوم القيامة ـــ الى ظلام .

المعنى الاجمالي :

بعد أن بين الله تعالى ـــ فى الآيات السابقة ـــ أن المؤمنين المهتدين لنور الله الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ولا تشغلهم اشغال العيش عن عبادة الله ، سيقبل الله اعمالهم ، ويجزيهم عليها احسن الجزاء . شرع يبين حال الكافرين الذين يأتون بأعمال حسنة ـــ كصلة الأرحام ومعونة الفقراء والمخترعات النافعة ـــ ويأملون من ورائها الخير فى الحياة الآخرة التى يؤمنون بها فى جملة معتقداتهم ، ويظنون أنها ستنجيهم من عذاب الله يوم القيامة .. فضرب مثلين لأعمالهم بين فى احدهما أن هذه الأعمال لا قيمة لها ، لأنها لا ترتكز على الايمان بالله واتباع رسوله ـــ صلى الله عليه وسلم . وما هى الا كسراب فى الصحراء يلمع لمعانا كاذبا ، فكما أن الظمآن الذى يرى هذا السراب يقطع المسافات اليه ليبل ظماه ، ويطفىء حرارة عطشه فما أن يصل الى مكان السراب حتى يفاجأ بالحقيقة ، وانه لا ماء ولا ري ، وانما جهد وعناء من السفر ، وهلاك من شدة العطش ، فكذلك الكفار يقطعون مسافة الحياة الدنيا وقد قدموا فيها أعمالا حسنة يأملون أن تنقذهم من عذاب الله يوم القيامة ، فاذا بهم يجدونها ضائعة باطلة ، ويجدون ربهم الذى كفروا به وجحدوا آياته ليوفيهم حسابهم فى سرعة عاجلة ، ويجازيهم على كفرهم وسيئاتهم التى كانوا يقترفونها فى حياتهم .

وذلك لانه لا قيمة لعمل صالح لا يتصل بمنهج واضح فى الضمير ، ثابت فى النفس مستمد من الهدى الذى رسمه الله لعباده .

وهذا المثل يذكره الله تعالى فى قوله : **(والذين كفروا أعمـــالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنـــده فوفاه حسابه والله سريع الحساب)** النور/٣٩ .

أما المثل الثاني فيبين الله فيه أن الكافرين من بدء حياتهم الى نهايتها يعيشون فى جهل مطبق وظلام دامس لانهم ـــ بكفرهم ـــ تنكبوا طريق الحق ، فجهلوا معرفة الله ، ولن يغنيهم عن معرفة الله والايمان به والتصديق برســـــوله ، والاهتداء بشرعه ان كانت لهم فنون وعلوم واختراعات .. !

فمثلهم كمثل رجل اجتمعت عليه وتراكمت ظلمات بعضها فوق بعض ، ظلمة البحر العميق وظلمة الأمواج المضطربة ، وظلمة السحاب بما يصحبه من رياح وأمطار .. وتتراكم الظلمات بعضها فوق بعض ، حتى ليخرج يده امام بصره فلا يراها لشدة الخوف والظلام .

وفيما روى معناه عن ابن عباس : ان الظلمات تعبير عن اعمال الكافر ، والبحر اللجي تعبير عن قلبه ، والأمواج المتلاطمة تعبير عما يغشي قلبه من الجهل والشك والحيرة ، والسحاب تعبير عما يختم به على قلبه .. فكما ان صاحب الظلمات في البحر اذا اخرج يده لم يكد يراها لشدة الظلام ، فكذلك الكافر لا يبصر بقلبه نور الايمان ، لأن الكفر ظلمة تقطع صاحبها عن نور الله الشامل للكون ، وضلال يحجب القلب عن اضواءالهداية الالهية ، ومخافة تورث الخوف والاضطراب .

وليس في الكون غير نور الله تعالى ، تتجلى به الحقائق ، ويمشي به المؤمنون الى الجنة يوم القيامة ولا نور عند احد سواه .

وفي هذا المثل يقول الله تعالى : **(او كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور)** النور/٤٠ .

وكما مثل الله الاعمال الحسنة للكافرين في احباطها وعدم وجود ثمرة لها . بالسراب الخادع في البر والظلمات المتراكمة في البحر ، مثلها في الضياع سدى يوم القيامة ، وفي عدم قدرة اصحابها على الامساك بشيء منها ، برماد عصفت به الرياح فبعثرته وتركت مكانه صلدا فقال تعالى : **(مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد)** ابراهيم/١٨ .

ولا عجب فالاعمال التي لا تقوم على الايمان بالله وارادة الآخرة اعمال تبعثها النزوة الطارئة ، والفلتة العارضة ، فلا استقرار لها ولا ثبات . ولا يقبل عمل بغير ايمان ولا يوجد صلاح بغير عقيدة .

ولا عجب ان يكون مصير اعمال الكافرين — يوم القيامة — هذا المصير السحيق ، فقد كرهوا ما انزل الله من قرآن وشريعة وهداية ، فقضى عليهم بالتعاسة والخيبة والخذلان واضلال الأعمال **(والذين كفروا فتعسا لهم واضل اعمالهم ذلك بانهم كرهوا ما انزل الله فأحبط اعمالهم)** محمد/٨ و ٩ .

—●—

هذا مصير الاعمال الحسنة للكافرين في الآخرة ، اما في الدنيا فما كان من الاعمال حسنا — كجهد في تعمير الأرض وكاختراع نافع للانسانية — يلقون نتيجته في دنياهم ، ويتمتعون به كما يريدون — في اجل محدود — وليس لهم في الآخرة الا النار ، لانهم لم يقدموا للآخرة شيئا ، ولم يحسبوا لها حسابا ، فكل عمل حسن في الدنيا ينعمون بثمرته فيها ، ولكنه باطل في الآخرة لا وزن له ولا قيمة ، وتلك سنة الله في هذه الأرض **(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها**

نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) هود/١٥ و ١٦ .

اما ما كان من أعمال الكفار صدا عن سبيل الله ، وحربا للمسلمين ، وعملا للقضاء عليهم في كل ارض وفي كل زمن ، سواء أكان ذلك بالفتن والدسائس ، او بالافساد والتضليل او بالعدوان والقتال ، فانهم — مهما بذلوا في هذا السبيل من جهد ، ومهما انفقوا لتحقيقه من أموال — لن يصلوا الى هدفهم ، **ما دام اولياء الاسلام يعملون لحفظ دينهم ،وتحطيم قوة اعدائهم** . وسيساقون — في الآخرة — الى عذاب جهنم وبئس المصير **(ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون)** الانفال/٣٦ .

وقد وعد الله المؤمنين — في كل معركة يلتقي فيها الكفر بالايمان — بانه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بسبب اشراكهم بالله ما لم ينزل به سلطانا، وذلك فوق عذاب الآخرة المهيأ للظالمين **(سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين)** آل عمران/١٥١ .

واذا كان الله تعالى قد قدر الا يهلك الكفار — بعد ظهور الاسلام — هلاك استئصال ، كما فعل ببعض الأقوام — قبل الاسلام — فان قارعة من عنده تتلو قارعة ، تنزل بساحتهم ، فتصيبهم في انفسهم واموالهم ، او تحل قريبا من دارهم ، فتروعهم وتتركهم في اضطراب ورعب وقلق ، وترقب لمثلها ، الى ان يأتي وعد الله وهو آت لا ريب فيه . وسيلقون فيه جزاءهم **(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد)** الرعد/٣١ .

وقد بين الله تعالى أن الكفار لن يكفوا عن أذى المسلمين والكيد لهم في كل مكان ، وفي كل زمان ، وانهم سيبذلون في ذلك نهاية جهدهم ، وهدفهم ان يفتنوا المسلمين عن دينهم ، لانهم يخشون الأمة التي تؤمن بهذا الدين ايمانا صادقا . وتطبق احكامه تطبيقا دقيقا ، لانه بما فيه من حق واضح ، ومنهج قويم، ونظام سليم ، يعتبر حربا على الباطل والبغي والفساد ، فلا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون **(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت اعمالهم في الدنيا والآخرة واولئك اصحاب النار هم فيها خالدون)** البقرة/٢١٧ .

وهذا الخبر قائم من الله تعالى الى يوم القيامة ، ينبه الأمة الاسلامية الى الخطر . ويحذرها من الاستسلام والخضوع ، ويدعوها الى الصبر والمصابرة ، والجهاد والمجاهدة ، والتقوى والمرابطة ، والحذر واليقظة . والصمود والثبات ، حتى يأذن الله .

وفي الاستجابة الى هذا التحذير القاطع العزة كل العزة ، والحياة كل الحياة . والسعادة كل السعادة والنصر كل النصر **(ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز)** الحج/٤٠ .